الثورة والأنموذج

بقلم غالب هلسا

لقد خلقت كل ثورة كبرى انموذجها . فيه جسدت احلامها ومطامحها ، وعليه اسقطت قيمها الايجابية . والانموذج او النمط هو وهم الثورة او نظريتها ، وهو نفي لنمط قديم متخلف وتأكيد لسمات جديدة . والانموذج يتشكل اساسا بالطبقة التي صاغته وهي تتخيل انها تمثل الامة بمجموعها ، بل ـ في احيان كثيرة ـ الانسانية كلها .

لهذا السبب فان بعض ملامح هذا الانموذج تبقى وتستمر ، لانها لم تؤكد كواجهة وقتية لبعض العراقيل الاجتماعية وحسب ، بل تتعدى ذلك بمحاولتها الوصول الى ايجاد حل نهائي لمشكلات الانسان في العالم.

لكن العصر الحديث تميز بظاهرة جديدة ، تلك هي ان الطبقات الثورية اخذت تعي ذاتها واهدافها ومداها . وقد انعكس هذا الوعي الى حد ما على الطبقات المسيطرة نفسها . واصبحت هذه السمة ابرز خصائص الثوري الحديث .

ان وهم الثوري في العصور السابقة على انه يمثل الانسانية كلها اصبح جوهر الثوري المعاصر بعد ان تحول في عصرنا الحالي الى علم . لقد ظل ذلك الوهم اروع جوانب الثورات في السابق وما زال حتى الان يشكل قوة جذب عظمى للفكر التقدمي كله .

لقد كان هدف حرية التجارة تحطيم اسس النظام الاقطاعي لخدمة مصالح طبقة التجار الناشئة ، ولكن دعاة حرية التجارة قد تجاوزوا مصالح التجار المحدودة الى خلق مجتمع انساني يتبادل الجميع فيه المنافع وينفي الفقر والتخلف . وكذلك كان الامر بالنسبة لمحاربة نجارة الرقيق ، فلقد تخطت اهداف الرأسمالية الصناعية الى فكرة المساواة بين الاجناس .

وبكلمة اخرى ، فان الانموذج الثوري يحمل هذين الوجهين :

١ ـ كونه يمثل حلقة من حلقات الكفاح الانساني في سبيل التطور ومن اجل خلق ظروف اكثر ملاءمة للتقدم .

٢ ـ تخطيه في كل مرة لضرورات المرحلة في محاولة لوضع حل نهائي لمشكلة الانسان في العالم .

وينبع الوجه الثاني من رغبة متأصلة في التكوين الاقتصادي ـ الاجتماعي للانسان ، تهدف الى اعادة الوحدة بين الانسان والطبيعة ، هذه الوحدة التي تحطمت منذ بداية عصور الصيد الاولى .

ثم اضيفت سمة جديدة وهي الوعي . هذه السمة قد غيرت الانموذج الثوري تغييرا كليا ، اذ دمجت وجهي الثوري وجعلت الكفاح من اجل ازالة العقبات التي تقف في طريق التقدم جزءاً من الكفاح الطويل لحل مشكلة الانسان في العالم . كما ان هذا الحل تغير طابعه فلم يعد يهدف الى اقامة علاقات ثابتة ، بل جعل التغير والحركة المستمرين طابعه وغايته . لقد اصبح الكفاح الاجتماعي يهدف الى ازالة الحواجز التي تعيق حرية الحركة .

كما ان هذه السمة الجديدة احدثت ثورة في الفلسفة ايضا. لم يعد هدف الانسان التلاؤم مع الطبيعة ، او العودة اليها ، بل السيطرة على قوانينها وقواها . ولهذا لم يعد هدف الانسان خلق نظام مشابه للنظام الطبيعي ، بل خلق ثورة داخل النظام الطبيعي يشكل نفيا للطبيعة . ولهذا السبب اصبح ما كان يعتبر خصائص انسانية ثابتة ، او ما كان يسمى غرائز ، يعتبر الان مجرد تكيف اجتماعي ناتج عن علاقة جدلية بين الفرد والمجتمع .

***

اذا انتقلنا الى الثورة المصرية ، فما هو الانموذج الذي اكدته ؟

ان الظاهرة الهامة في هذه الحركة هو تحولها من انقلاب عسكري الى ثورة . وقد تم هذا التحول من خلال تفاعلها مع ظروف البلاد الداخلية والعالم كله . وانعكس هذا التحول على الانموذج الذي بنته الثورة واكدته ، اذ اخذ يتحول من نمط الثوري الكلاسيكي الى بداية الانموذج الثوري الحديث . تم ذلك ، ويتم بقدر كبير من العناد ، ومن خلال التجربة والخطأ . ولعل السبب الرئيسي لبطء هذا التحول هو المفهوم البراجماتي الذي ينتج اثرا ضارا على عملية الوعي ـ السمة الاساسية للثوري المعاصر ـ . وهذا ما سنعرضه بالتفصيل .

ولن نحتاج الى جهد كبير للتعرف على هذا الانموذج الذي اكد عليه الوضع في مراحله الاولى . فلقد ساد الاعتقاد طويلا ان مشكلات مصر كلها ـ والانسانية ايضا ـ ستحل لو امتلأت البلاد حتى حوافيها بالبورجوازيين الصغار ، ان طريق السعادة والرخاء هي ادخال الشعب بكل فئاته في جنة البورجوازي الصغير : لكل فلاح قطعة ارضه ، لابن المدينة متجره او حرفته او دخله الثابت الخ ... ثم تحويل الاقطاعيين والرأسماليين بالعديد من الاجراءات الحكومية الى مالكين صغار ، وتجميعهم كلهم في تنظيم واحد . كان ذلك هو الحلم والهدف .

وقد اصبح الالحاح على هذا الانموذج شديدا عندما بينت التجربة ان البورجوازية الكبيرة عاجزة تماما عن تحقيق التصنيع وعن تصفية الاستعمار . وفشلت كل المحاولات المبذولة لالباس البورجوازية الكبيرة ثياب الوطنية . ان احدا لم يوجه اليها ضربة في اول الامر ، ولكن قيم البورجوازي الصغير ، وبالاخص فئاته العليا التي اصبحت تعرف بالطبقة الجديدة ، اخذت تسحب الارض من تحت اقدام الرأسمالية الكبيرة .

ما هي الظروف التي ادت الى تأكيد هذا الانموذج ؟

كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي السابق للثورة يشكل نظاما مغلقا حيث الطريق مسدودة ، تقريبا ، امام فئات البورجوازية الصغيرة للصعود الى قمة الهرم الاقتصادي . لقد اخذ النظام الطبقي طابعا متحجرا ، واخذت الاحزاب تتحول الى ادوات لتأكيد هذا الوضع .

وعندما قامت حركة يوليو ، حاولت الطبقات المسيطرة ان تهضم هذه الحركة وتجعل الامور تسير كما كانت الحال في السابق .

ولكن الهوة اخذت تتسع بين الثورة والطبقات المسيطرة ، لمعارضة هذه الاخيرة لقانون الاصلاح الزراعي ، ومعارضتها لاية مقاومة جدية للاستعمار . بل انها اخذت تعارض اي اتجاه للتصنيع الكبير . لقد كان الوضع نصف الاقطاعي يهيىء ارباحا طائلة للمشروعات الصناعية الصغيرة ولكبار المستوردين ، ولذا فقد كانت اية محاولة للارتفاع بالتركيب العضوي لرأس المال ـ اي بانشاء صناعة متقدمة ـ يقاوم بعنف لانه سيؤدي الى خفض معدلات الربح .

ولقد اصبح هذا التناقض العامل الرئيسي الذي باعد بين الثورة وبين البورجوازية الصناعية ، كما انه التعارض الاساسي الذي انقذ الثورة من الوقوع في قبضة البورجوازية الصناعية .

ولم تستطع الثورة ان تخلق فلسفتها ولا تنظيمها الشعبي لتواجه القوى المسيطرة على الحياة الاقتصادية في البلد ، وقدمت بدلا من ذلك انموذج البورجوازي الصغير (كما عقدت محالفات مؤقتة مع ثلاث او اربع منظمات تمثل في اغلبيتها البورجوازيين الصغار) .

لقد توسمت فيه الثورة نمطا يستطيع ان يزلزل كيـــان البنيان القديم . وكانت على حق ، اذ فعل ذلك بكفاءة وقدرة رائعتين ، فلم تكد تمضي سنوات معدودة حتى انتهت الفئات العليا كمصالح اقتصادية ، وكتنظيمات حزبية وكفكر .

لقد اعتبرت السلطة الوضع القديم مجرد وضع اقطاعي كلاسيكي، وتبنت مقابل ذلك البطل البورجوازي الذي يستطيع باندفاعه وطموحه تحطيم ذلك المجتمع . ولما كان التنظيم السياسي مساويا ومعبرا عـــن تحجر الاوضاع السالفة ، فقد اصبح الانموذج المطلوب انسانا مقطـوع الصلة بكل التنظيمات والاحزاب السابقة ، يعطي تأييده للوضـع ، وينصرف لشؤونه الخاصة . ولقد كانت فترة غياب الحرية ـ وهـــي الضرورة التي اقتضتها ظروف الصراع مع التنظيمات السياسية ـ المناخ الامثل لانطلاق هذا الانموذج وجموحه . ان انسانا مختبئا داخل صدفة صلبة تفصله عن العالم وتجعل منه جزيرة منعزلة ، في مجتمع يتألـف من جزر تتماس ولا تتصل ، كان هو المثال الاعلى .

وقد كان ذلك يتلاءم مع التركيب النفسي والاجتماعي للبورجوازي الصغير ، الذي يرفض فكرة انتمائه الى اية طبقة اجتماعية لان ذلك يحدد طموحه ويهدد باعادته دوما الى الطبقة العاملة التي كان يرى نفســـه محظوظا بالارتقاء عنها . وكان هذا ايضا احد اسباب التعارض مع اليسار، اذ بدا ان هنالك تشابها بين فكرة النظام الحديدي للطبقات الاجتماعية الذي وضعه النظام السابق وبين فكرة اليسار عن انقسام المجتمع الى طبقات : ان كلا منهما يؤمن بوجود الطبقات وكلا منهما يرى ان المســـار الاجتماعي للانسان يتحدد بالمسار التاريخي لطبقته .

ان العلاقة بين الثورة والبورجوازي الصغير اخذت تزداد وثوقا فالخلخلة الاجتماعية التي احدثها تغير الاوضاع ، ابتداء من وضع ابناء الطبقة الوسطى في الحكم ، قد فجر طاقات مكبوتة اخذت تتجه الـى تحطيم البناء الاجتماعي القديم واشكاله الاجتماعية المتحجرة . ان انتقال المئات من مراكزهم التي كانت تبدو في المجتمع السابق كقدر ، والسرعة المذهلة التي ارتفع بها بعض الناس وسقط بها اخرون ، والثراء المفاجىء الذي اصاب الكثيرين نتيجة التوسع في مشروعات الانشاء والتصنيع ، كما ان ازالة الوهم الذي كان يحيط بقدسية وضع نصف اقطاعي ، واقترابه من فئات الشعب المختلفة ، وما رافق ذلك من تغيير رمـــوز السلطة ـ لكونها في الماضي مرتبطة بالانتماء الى طبقة معينة ومستوى معين من البراسة الخ... ونزع الالقاب وغيرها ساهم في تفجيـــر مطامح البورجوازي الصغير وطغيان نمطيته .

لقد اصبح كل شيء ممكنا وقريبا واصبح الكثيرون يندفعـــون كالشهاب من ادنى المستويات الاجتماعية الى القمة .

ولو اخذنا المثقفين كمثال ، وهم قد جسدوا هذه المطامح الى اقصى حدودها فاننا نلمس ان شكلا خاصا من اشكال الجنون راح يتســرب اليهم . ان اردأ كتاب المسرح لا يقنعون بدون مستوى ارثر ميللـــر ، واشدهم تواضعا يشيد بانه حقق وحده ما يزيد على ما حققه كتـــاب المسرح الانجليز جميعا في العشر السنين الماضية . ان مسرحية تهريجية تافهة قد وضعت في آن واحد في مستوى مسرحيات بيكيت ، ويونيسكو وادامـوف ، واضيف اليها مجد اخر ، وهو انها اشتراكية .

ان شاعرا مبتدئا ، وبلا موهبة يسمعك قصيدة له ، وكلمات المديح العادية ـ رائعة ، مستوى ممتاز الخ.. ـ لا تقنعه ابدا . انه يطمع ان يكون لوركا اخر ، او ايلوار .

وانا متأكد لو ان انسانا كتب وهو نصف نائم لوجد من يصف عمله بانه قفزة كبرى ، ومرحلة جديدة ، وظاهرة تستحق الالتفات والتأمل !

خصائص هذا الانموذج :

١ ـ لقد انبعثت من داخل هذا الموقف الافكار الاساسية للفكـــر البورجوازي الكلاسيكي والتي اعتنقها هذا الانموذج :

أ ـ العمل للمصلحة الخاصة دون قيود ودون مراعاة للاخرين هو يد الله الخفية التي تحقق الرخاء الاجتماعي والمصلحة العامة . لقد كان من الواجب تحطيم المجتمع القديم لانه كان يضع قيود الطبقة والمولد والحزب ليمنع المواطنين من العمل للمصلحة الخاصة .

اذكر ان احد الصحفيين اللامعين قديما وحديثا والذي يتركـز موضوعه المفضل حول كيفية تحول افقر العمال والفلاحين الى مليونيرات قد عبر عن هذا احسن تعبير، اذ هاجم الموضوعات التقليدية التي يتناولها وعاظ المساجد في خطب الجمعة ودعاهم الى تناول الامور التي تمس مشكلات الشعب الحقيقية . قال مثلا انه يمكن سرد حياة العصاميين في مصر وكيف بدأوا حياتهم فقراء لا يملكون شيئا واصبحوا اصحـاب ثروات تقدر بالملايين بل وبعشراتها ، وذكر كامثلة على هؤلاء العصاميين ـ كما اذكر ـ اثنين ، عبود وابو رجيلة .

ب ـ تأكيد العودة الى النظام الطبيعي للاشياء ، ولذا اصبح يطلق على الحافز الفردي والملكية والرغبة في تكوين عائلة صفات الغرائـــز البناءة . حتى الاتحاد القومي اعتبر امتدادا لنظام التعاون بين ابناء القرية المصرية .

ج ـ ان مصلحة الامة كلها ، بل والانسانية ، هي مصلحـــة البورجوازية .

٢ ـ الخاصية الثانية لهذا الانموذج انه غير متزن الاخلاص . فهو شديد التعصب للشعارات والمظاهر الخارجية التي سرعان ما يحولها الى محرمات لا يجوز التعرض لها . الا انه على استعداد لخيانتهـــا والتخلي عنها في السر . انه قادر على عقد اسوأ الصفقات خفية ولكنه يبدو امام الناس وكأنه غير قابل للفساد .

وتعصبه للشعارات والمظاهر الخارجية هو تعبير عن امرين :اولهما احساسه بالذنب لتحطيم قيم واشكال المجتمع القديم ، او فئاته العليا التي ينتمي اليها برباط الابوة ، وهي في الوقت ذاته تبرير لاسكـات الاعتراض على نشوء طبقة جديدة .

٣ ـ انه في تفكيره جزء مـن البورجوازية الكبيرة ، ونشاطه يتجه

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق٠ل

- المثقفون ـ رواية جزآن
  ترجمة جورج طرابيشي ١٤٠٠
- انا وسارتر والحياة
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٤٠٠
- مغامرة الانسان
  ترجمة جورج طرابيشي ١٥٠
- الوجودية وحكمة الشعوب
  ترجمة جورج طرابيشي ١٧٥
- نحو اخلاق وجودية
  ترجمة جورج طرابيشي ٢٢٥
- بريجيت باردو وآفة لوليتا ١٥٠
- قوة الاشياء ـ جزآن
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ١١٠٠

منشورات دار الاداب

دائما للوصول الى مراكزها حتى عندما يكون وجودها قد انتهى . ولا يتم ذلك من خلال تصور نفسه بورجوازيا صغيرا ينمو حتى يصبح بورجوازيا كبيرا ، ولكنه منذ اللحظة الاولى يصنع البورجوازي الكبير في سلوكه وافكاره وملبسه وظروف حياته . انه يحيط نفسه برموز البورجوازية الكبيرة منذ اللحظة الاولى ، فتصبح حياته سعيا مستمرا دائبا لاستكمال الصورة .

اننا نجد عاملا وموظفا يتناولان نفس الدخل . وبينما نجد العامل يحول نقوده الى متع مباشرة ، نجد الثاني قد حول مرتبه الى ملابس انيقة ، وثلاجة كهربائية وتلفزيون ... اما حاجات جسده وذهنه فتأتي دائما في المرتبة الاخيرة . ولعل مشكلة المهر هي اصدق تصوير لهذا الموقف ، اذ يبدأ الموظف الصغير حياته الزوجية بانفاق مبلغ ضخم في تأثيث بيته يجعله مدينا وبائسا طيلة حياته .

لهذا السبب تصبح صورة المستقبل في ذهنه دخلا هائلا وبيتا ضخما . ان عدم واقعية الهدف بالنسبة للوسائل يخلق احد ملامح هذا الانموذج .

لقد لاحظت مثلا ان القرارات الاشتراكية التي صدرت في عام ١٩٦١ قد احدثت خيبة امل وتوترا بين القطاعات الدنيا من الطبقة الوسطى ، على الرغم من انها لم تمسهم بشيء ، واستحالة ان تؤثر عليهم في المستقبل . ولم يكن من الصعب بعد مناقشتهم فهم السر في ذلك ، فان كلا منهم قد تقمص شخصية البورجوازي الكبير الى حد انه لم يعد يفكر في نفسه كانسان ذي دخل محدود .

٤ ـ ان البورجوازي الصغير في المجتمع المصري يحمل سمات خاصة به ، وهي تمثله قيم مجتمع حرفي ، متخلف ، خاضع لسيطرة الاقطاع واستغلال رأسمالية متخلفة نصف اقطاعية والاستعمار ، وضغط جهاز بيروقراطي متهرىء ،مضافا الى ذلك انخفاض مستوى الدخول والصراع المميت على لقمة العيش .

وقد انتج هذا ما يمكننا ان نطلق عليه صفة الميكافيلية الشعبية ، والتي يعبر عنها بالاعتزاز الشديد بصفات الحداقة والفهلوة ، ورفض قيم البساطة والاستقامة في التعامل والسلوك . ان هذه القيم تعكس موقف انسان مذعور : انا ضد العالم ، او ما يعبر عنه المثل العربي القديم : ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب .

وانتقال هذه القيم الى مجتمع متقدم تعني الرشوة والمحسوبية وعدم الارتفاع الى مستوى المسؤولية العامة . انها تشكل تقويضا للاسس الانسانية لاي مجتمع تقدمي متطور .

لقد كانت هذه القيم ايجابية في يوم ما ، اذ كانت تعبيرا عن وضع : بما أن الاخرين قد خدعوني واغتصبوا كل شيء بالارغام والقوة ، فما علي الا ان استرد بعض ما اخذوه بالخديعة ... وبمعنى اخر انه لا يمكن التعامل بشرف مع اللص الذي يسلبني لقمة عيشي .

ولكن اساس اي مجتمع تقدمي يقوم على اساس مغاير تماما : ما دام المجتمع يمنحني الكثير فعلي ان أرد الدين . ان هذا الاساس الاخلاقي هو جوهر الاحساس بالمسؤولية العامة .

٥ ـ الازدراء للفكر والفلسفة والايمان بان السلوك العملي ـ وهو في ذهنه مزيج من البراجماتية المتطرفة والميكافيلية ـ هو وحده السلوك المعقول والواجب .

٦ ـ التراث اللاعقلي ، والتفكير الغيبي الذي ورثه عن مجتمع يعتمد في معيشته على اساليب انتاج متخلفة . ومما يدهش فعلا ان نلاحظ الدهاء والحذق الذي يتميز به هذا النمط في اسلوب معاملته والتخلف المريع الذي يطبع رؤيته للعالم .

***

ان علينا ان نلاحظ حقيقة بالغة الاهمية في هذا المجال،وهي التفاعل الجدلي بين الانموذج والثورة ، وكيف ان كليهما قد اكد الاخر في مرحلة معينة ـ مرحلة قد شارفت على نهايتها ـ .

ان تأكيد الثورة على البورجوازي الصغير قد اعطاه ابعادا جديدة، وفتح امامه ابواب الطبقة الجديدة ـ هذه الطبقة التي كادت بعد مضي فترة من الزمن ان تحتل مواقع الطبقات المندثرة بحيوية واندفاع غير معهودين ـ . وبدا للوهلة الاولى انه حتى المشاريع الانشائية الكبرى وخطط التنمية قد وضعت لخدمة هذه الفئة التي اخذت ثرواتها تتزايد بسرعات مضاعفة .

وقد بلغت الاوضاع مرحلة الخطر ، عندما اخذت هذه الفئة تمد يدها للاستعمار الجديد وتحاول ان تلتف من خلف الثورة .

اما من الناحية الاخرى فقد وجدت الثورة الحماية من هذه الفئة. لقد اخذت المصالح الاقتصادية الجديدة للطبقة الناشئة تشكل سياجا يحمي الحكم .

الا ان هذا كله ادى الى نتائج خطيرة . فالحكم بدون وجود تنظيم سياسي شعبي ، ودون الاعتماد على الديموقراطية السياسية امر باهظ التكاليف . كما ان تضخم الجهاز الحكومي واتساع اجهزة الامن لن تحل مشاكل التنمية والتخطيط حلا جذريا .

تعارض الثورة مع الانموذج :

ان علينا ان نقرر هنا ان اخلاص قيادة الثورة المصرية كان ذا اثر كبير في تحويل مسار الاتجاه العام للمجتمع ، وساعد على نقله من طابعه الشبه اقطاعي الى طريق النمو غير الرأسمالي . ان تفسير الخطوات التي اتخذتها الثورة على انها مجرد ردود فعل حتمية لضرورات ملحة غير دقيق . ان مثل هذه الظروف التي واجهت الثورة المصرية كان من الممكن ان تجعل من مصر ايران او تركيا اخريين . وهذا بالطبع يحتاج الى تحليل اوسع لا نرانا بمستطيعين القيام به هنا .

اننا في الوقت الذي نفسر فيه مواقف الثورة المختلفة على انها ردود فعل مخيبة للامال لمواقف عدائية اتخذها الاستعمار ضدها نستطيع ان نقول ايضا ان مواقف الاستعمار العدائية كانت ايضا ردود فعل لمواقف الثورة ضد الاستعمار ومن اجل خلق بلد قوي .

هذا بالطبع لا يلغي الظروف الموضوعية ولكنه يحدد دورها من خلال تفاعلها مع الانسان . اننا فقط نلغي مفهوم الحتمية الصماء ، ونستبدله بالجدل بين الانسان والموقف : الانسان والظرف الاجتماعي . كما اننا نعارض في الوقت ذاته مفهوم الحرية الانسانية المطلقة التي تؤدي في هذه الحال الى عبادة الفرد . والذين يدعون ان الثورة منذ لحظتها الاولى كانت واعية باهدافها ومسارها وانهم اعطوها كل تأييدهم منذ اللحظة الاولى لانهم كانوا على بينة من ذلك ليسوا اكثر من منافقين (وربما اعتبر بعض هؤلاء السادة ان وقوفهم ضد الكفاح الشعبي في السابق مبرر بنفس الاسباب وهو كونه مرحلة لا بد منها للثورة) .

لهذا السبب علينا ان نضع تقييما جديدا للذين ايدوا الثورة وللذين عارضوها في مختلف مراحلها ، معتبرين الاخلاص والتمسك باهداف الشعب وحدهما مقياسنا للحكم .

***

ثم بدأت الظروف تتطلب تغييرا هاما ، واخذت القيادة شيئا فشيئا تحاول الاستجابة لهذه الظروف . ان الاساس المادي للمجتمع الجديد اصبح يبحث عن انموذج جديد ومختلف .

لقد استطاعت نمطية البورجوازي الصغير ان تحطم الاسس الاخلاقية والفكرية للمجتمع القديم ، ولكنه استنفد كل قدراته الايجابية في هذا الاتجاه ، ثم اخذ يستعد للعودة الى الخلف ، واستعادة الافكار والطابع الحديدي المتحجر للمجتمع . فقد اصبحت اقسامه العليا طبقة جديدة ذات مصالح اقتصادية نامية ، بينما تحولت اقسامها الدنيا الى احتياطي فكري وسياسي لها . ولم يمض وقت طويل حتى بدا وجهه الحقيقي : الاشتراكية هي عدوه الاكبر . وقد تساءل الرئيس جمال عبد الناصر مرة عن السبب الذي يدعو بعض كبار الرأسماليين الى معارضة توسع العلاقات الاقتصادية مع دول المعسكر الاشتراكي على الرغم من ان هذه العلاقات قد ادت الى مكاسب طائلة حصلوا عليها هم انفسهم ما كان بالامكان تحقيقها لو ان مصر استمرت في تجارتها التقليدية مع الغرب .

ان معاداة الفكر الاشتراكي تنبع من رعب البورجوازي الصغير من الارتباط بالشعب ـ الطبقة العاملة والفلاحين . انه يرى في مثل هذا الارتباط قضاء على كل محاولة لتخطي وضعه ، وهو لهذا يبدو مخيفا الى اقصى حد بالاخص عند تأمل وضع فئات الشعب الدنيا في مجتمع متخلف . والبورجوازي الصغير يعتبر اي تماثل بينه وبين الفئات الشعبية نوعا من الفضيحة . ان عدداً كبيرا من القصص والافلام المصرية تصور هذا التقارب كمأساة مريعة .

في ندوة نقلتها مجلة الكاتب منذ بضعة شهور جمعت بين عدد من الكتاب المصرين والصحفيين السوفييت ، تساءل احد الكتاب المصريين عن مدى صحة اتجاه البلدان الاشتراكية الذي يرى ضرورة التضحية بالاجيال الحاضرة من اجل الاجيال المقبلة ؟

رد الصحفي السوفييتي بقوله ان ثورتهم قامت لانقاذ الاجيال الحاضرة لا للتضحية بها وان ما حدث من دمار وقتل كان بسبب التدخل الاستعماري وموقف اعداء الثورة . وقال ان موقف مصر التحرري قد جعل المستعمرين يشنون عليها حربا استعمارية في عام ١٩٥٦ ، ولم يكن امام الشعب المصري الا أن يخوض الحرب ويقدم تضحيات غالية . ولم يكن ذلك يعني ان الثورة المصرية قد قامت حتى تضحي بالشعب المصري .

وتوضيحا لرأي الكاتب السائل نقول انه يعني هنا بالتضحية ان التركيز على التصنيع الثقيل سيؤدي الى خفض مستوى المعيشة وانقاص الاستهلاك وبالاخص استهلاك الكماليات ، وما يؤدي اليه ذلك من احتكاك مستمر مع الاستعمار .

ولا شك ان (التضحية) بهذا المعنى قد تمثلت في الاتحاد السوفياتي كما لم ولن تتمثل في اي بلد اخر . فالحرب الاهلية والتدخل الاجنبي قد اديا الى مقتل الملايين . كما ان الحرب العالمية الثانية قد ادت الى مقتل اضعاف هذا العدد وكادت ان تدمر الاقتصاد الوطني تدميرا شبه كلي . هذا بجانب التركيز على بعض الصناعات غير المنتجة كصناعات التسليح والصواريخ والاقمار الصناعية والقنابل الذرية . يضاف الى هذا القروض والمعونات التكنيكية الضخمة التي تشكل جزءا كبيرا من الدخل القومي هم باشد الحاجة اليه ، وكذلك مساعداتهم للحركات الوطنية ولتصنيع البلدان الاشتراكية .

وعلى الرغم من ان مثل هذا الانموذج لن يتكرر ، فاننا نتساءل هل وضع العامل والفلاح الروسي هو وضع من ضحى بمستوى مرتفع من الحياة كان يتمتع به في زمن روسيا القيصرية ؟

ان ذلك يبدو مضحكا دون شك . اذا ، فمن الذي ضحى ، حتى بالنسبة لهذا المثال المبالغ به ؟ انه البورجوازي الروسي والاقطاعي وحدهما . اما ما كان من ضغط على بعض الحريات ، واضطهاد المثقفين فلم يكن بسبب سرعة التنمية ، بل بالعكس ان هذا الضغط ـ كما تبين فيما بعد ـ قد اعاق هذه السرعة .

وهنا في مصر ، لقد كانوا يضحون بفئات الشعب منذ الاف السنين ، والتصنيع الثقيل ومكننة الزراعة تخدم هذه الفئات ، ليس في المستقبل البعيد وحسب ولكن في الحاضر القريب ايضا . ان عشرات الالاف ، بل ومئاتها يتحولون من حياة شبه انسانية ، من العيش على هامش الانتاج ، من البطالة والجريمة الى عمال مهرة واصحاب دخول ثابتة .

اذا فمن الذي يضحي هنا ؟ انها امتيازات الفئات العليا . ولذا فالسؤال المتعلق بتضحية جيل حاضر من اجل اجيال مقبلة يمكن ان يصاغ بالشكل التالي : هل نضحي بامتيازات الفئات العليا من اجل رفع مستوى الشعب كله وخلق وضع يسد الطريق امام الاستعمار الجديد من السيطرة على البلد ؟

هنا نواجه وهم البورجوازي الكلاسيكي ، الذي ينقصه حتى وعي البورجوازي الحديث بذاته وبمصالحه ، وهو انه لا يمثل الامة كلها فحسب بل هو الامة ذاتها ومصالحه هي مصالحها .

ولكنه في بلدان العالم الثالث بشكل خاص يتحتم ارتباط البورجوازي الصغير بالشعب . ان ذلك لا يفيد مصلحته الاقتصادية وحسب ولكنه زيادة على هذا يقوم خلقه . ان ذعره الناتج عن عدم الاطمئنان والذي يجعله يكرس حياته للتكديس خوفا من المستقبل ويدفعه الى الاسراف بسبب عقدة التشبه بالبورجوازي الكبير ، ان ذعره هذا سيزول عندما يبنى المجتمع على اسس اقتصادية سليمة . ان المجتمع الجديد سيخلق الاطمئنان والاستقرار اللذين سيتيحان له المشاركة في الحياة كمستمتع ، لا كمنتفع مذعور .

وابرز مظاهر التعارض بين الثورة وانموذجها هو التالي :

١ ـ ماذا كان يمكن ان يحدث لو ترك البورجوازي الصغير يواصل مسيرته التي بدأها في الظروف التي سبقت الاشارة اليها ؟ ان ذلك سينتهي حتما الى حكم بورجوازية مالية ـ صناعية اشد شراسة وطموحا من سابقتها النصف اقطاعية والنصف سمسارة للاستعمار .

وكان ذلك سينتهي حتما الى تحويل مصر الى شبه مستعمرة مرتبطة بالاستعمار الجديد . ان طابعها الطبقي سيلقي بها في احضان الغرب ويجعلها عدوة للشعب .

اي بكلمة اخرى ستصبح رأسمالية الدولة لمصلحة البورجوازية الصناعية ـ المالية . انها كانت ستنتهي الى نازية عملية للاستعمار الجديد . لهذا كان الصراع ضد « تطلعات » هذا الانموذج ، اقتصاديا وسياسيا وفكريا في حقيقته صراعا من اجل المحافظة على استقلال مصر وسيادتها في الدرجة الاولى .

٢ ـ ان الملكية العامة لادوات الانتاج تحد مجالات النمو امام البورجوازي الصغير وصعوده الى مراكز البورجوازية الكبيرة . ووضعه النفسي ليس وضع البورجوازي الصغير الذي توقف نموه وانما وضع البورجوازي الكبير الذي يفتقد بعض الوسائل التي تكمل مظهره . ان عظيم معيشته ، ونمط تفكيره ، والوسائل المادية التي يحيط بها نفسه هي مشروع بورجوازي كبير وهو سيظل دوما يتحين الفرص لملء الفجوات الخالية في هذا المشروع .

ولذا تبدو الملكية العامة بالنسبة له كعقبة وليست كمصير عليه ان يتكيف بالنسبة له . انه يعتبرها مجرد طارىء سيزول مع الزمن . ولقد عبر الكثير من الكتاب عن هذا الموقف ، اذ اكد الكثير منهم ان التشابه بين اشتراكية مصر والاشتراكيات الاخرى ، مجرد تشابه في الاسماء ، وان اجراءات تحديد الدخول انما هي ضرورة موقوتة ستزول حتما .

وعلى هذا الاساس يتحدد موقفه من الملكية العامة :

أ ـ انه يحاول تحطيمها ماديا ، معبرا عن مشاعر العداء ازاءها .

ب ـ انه يعبر باستمرار عن اساسها غير المنطقي بالنسبة له ولذا فهو يشن هجوما فكريا واخلاقيا على اساسها النظري .

ج ـ ما دام اساسها غير اخلاقي بالنسبة له ـ وذلك يساوي عنده كونها ليست ملكية خاصة ـ ولذا فهو يحاول ان يعيد اليها اخلاقيتها بان يتصرف كمن يملكها ملكية خاصة ، ولذا تبدو السرقة ـ استعمال بعضها لمصلحته الخاصة ـ والبيروقراطية ، وهي احساسه بالاهمية لانه يملك ، مبررتين اخلاقيا .

٣ ـ ان تقسيم الارض الى قطع صغيرة يتعارض مع امكانية تطبيق الوسائل الحديثة والمتطورة في الزراعة والتسويق ، ومع محاولة تجارب اجتماعية وتكنيكية حديثة . ومن الجانب الاخر فان الملكية وما

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

يرافقها من انتقال الجهاز الحكومي عملية صعبة التنفيذ وغير مامونة العواقب .

كما أن علاقة الفلاح بالارض ـ هذه الاداة المتخلفة للانتاج والتي تعجز عن رفعه الى مستوى الاحساس بالمسؤولية العامة ـ تجعل من المستحيل في الوقت الحالي قيامه بالتخلي عن ارضه وقبول فكرة الملكية العامة للارض .وحل مشكلة الفلاح هي القضية الكبرى التي تواجهها المجتمعات الاشتراكية ، فالتوسع في ملكية الارض يتعارض مع حماس الفلاح في الانتاج ، وتوسيع قاعدة الملكية الصغيرة يتعارض مع اهداف المجتمع الاشتراكي فيما يتعلق بمكننة الارض وفي التخطيط الاقتصادي ، كما ان ذلك يؤكد الاتجاهات البورجوازية الصغيرة .

ان التجميع الزراعي والتسويق التعاوني هما وسيلتان لمحاولة حل بعض هذه التعقيدات .

ولكن الارض ستظل الى وقت طويل منبع البورجوازي الصغير . ان التصنيع الثقيل ومكننة الزراعة ستخففان من حدة المشكلة ، كما ان انتشار الفكر الاشتراكي ورفع مستوى الفلاح الفكري امران ضروريان ما دامت المشكلة الاساسية هي مشكلة الفلاح نفسه الذي لا يقتصر اثره على الريف ولكنه ينتقل الى جميع فروع الانتاج والخدمات ، اذ ان الريف يشكل المصدر الرئيسي للايدي العاملة في الوقت الحاضر .

٤ ـ ان الاجراءات الاشتراكية وخلق قطاع عام ضخم تطلب ارتفاع الاحساس بالمسؤولية العامة . ومن هنا نشأ المأزق الاكبر . لقد كان الالحاح في محاربة كل تنظيم سياسي ، وتأكيد العزلة عن كل نشاط عام كفضيلة ، وغياب الحرية كلها عوامل قد ادت الى خلق نمط اناني منعزل يؤثر السلامة ويبتعد عن حمل اية هموم غير همومه الخاصة . كان العمل السياسي ، اي حمل عبء وهموم فئات اجتماعية اخرى غير الهموم الخاصة يصم الانسان كفعلة السوء التي تظل تلاحقه طيلة حياته،وتلقي عليه بظلها ككابوس ابدي لا منجاة منه . ان عدم الاهتمام بالاخرين اصبح فضيلة تفتح امام صاحبها مجالات النجاح والتقدم .

انه من العسير فعلا ان يتحول هذا الانموذج بين يوم وليلة الى ثوري ، يضحي من أجل الاخرين ، ويكرس حياته لخدمتهم .

٥ ـ من الافكار الرئيسية التي كانت سائدة والتي عبرت عن هذا الانموذج خير تعبير موقفه من فكرة العنف وفكرة الصراع الطبقي. ان الاعتراف بوجود صراع طبقي كان يقتضي الالتزام بفكرة العنف .

الا انه كما اوضحنا في السابق كان هنالك شبه علاقة اوديبية بين هذا الانموذج والفئات العليا . فلذا كان الاعتراض على استعمال فكرة العنف ضد الفئات العليا قائما على اساس اخلاقي . وربما كان هذا الاعتراض مبررا لو ان العنف لم يستعمل ضد اليسار ، ولو ان هذا العنف لم يكن الوسيلة الوحيدة لرد العدوان الثلاثي .

ان الاعتراض الاخلاقي على العنف فتح الطريق امام استمرار الايديولوجية البورجوازية التي تجد خير تعبير عنها في الصحافة .ففي الوقت الذي يشكل فيه القطاع العام ٨٠ بالمئة من الانتاج الصناعي نجد مقالات تفرق بين (اشتراكيتنا والاشتراكيات الاخرى على اساس ان الاولى تعتبر حق الملكية حقا مقدسا) .

ومن المحتمل ان يكون تساهل السلطة ازاء مثل هذه الاراء ناتجا عن اقتناع سابق بان الاشتراكية ممكنة التحقيق بالوسائل التكنيكية وحدها دون حاجة الى كوادر سياسية وتنظيم سياسي .

الانموذج الجديد :

لهذا كله نرى ان انموذجا جديدا لا بد ان يخلق لا ليعبر فقط عن المرحلة الجديدة ، ولكن ليدفعها الى امام . اذ ان بديله الاخر وهو البيروقراطية باهظ التكاليف من ناحية ، ومن ناحية اخرى فانه يهدد كل المكاسب التي تحققت .

ان دراسة سمات هذا النموذج وايديولوجيته واصوله الطبقية مسألة يطول شرحها ، ولذا فسنرجئها الى مقال اخر .

القاهرة

غالب هلسا

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

ضياع في سوهو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف ((اللامنتمي))تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدةهي سر أبداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت ((دار الاداب)) على حقوق ترجمةهذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذهالرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

الثمن ٤ ليرات لبنانية .

منشورات دار الآداب